نشر في **نوافذ**، ملحق جريدة **المستقبل** ، الجريدة اليومية البيروتية،في 12 حزيران 2004

الشراكة غير المعلنة
الطالب الجامعي و"أستاذه"

عزّه شرارة بيضون*

أن نكون، نحن المدرّسين والمدرّسات، موضع حب أو كره لتلامذتنا في مراحل التعلّم الأولى أمر شائع. والمدرّسون في هذه المراحل يلمسون اتكالية واعتمادية نتعرّف عليها، جميعاً، في تصريحات يطلقها هؤلاء من مثل " كتبتُ لك في الامتحان..."، و"أعطتني المدرّسة علامة جيّدة.."، و " نجّحني الأستاذ المدرّس الفلاني...."، و" رسّبني هذا الآخر" إلخ. وفي روايات حيواتهم يتكلّم الناس عن "حب" مدرّس بعينه وعن "كره" آخر، وعن اتكالهم واعتمادهم على ثالث، بل هم يصرّحون بأن "حب" مدرّس بعينه كان جاذباً إلى اهتمامات ومجالات وبأن"كره" مدرّس ثان أحدث نفوراً من مادّة كان مؤتمناً على تعليمها.

في المراحل الدراسية الأولى يبدو الحب والكره للمدرّس والاعتماد عليه، وما ينتج عنها.... تبدو أموراً مقبولة، فلا تثير الاستهجان؛ ويسع المدرّس عزْوَها، جميعاً، إلى مناهج تلقينية، ابتُلي الجميع بها، مسؤولة عن جعل المدرّس في موقع السلطة المعرفية، بل في موقع سلطوي أكثر شمولاً، على غرار السلطة الأبوية وتجاذباتها. لكن بقاء الأمور على حالها في المرحلة الجامعية، واستبقاء الأستاذ الجامعي في ذلك الموقع لهو أمر عجيب! واللافت أنك تسمع، أحياناً، طلاباً في هذه المرحلة يعبّرون عن عواطفهم تجاه أساتذة بلهجة لا تنمّ عن حرج صاحبها في التصريح عنها، وغافلة، بالتأكيد، عن حرجك أنت شاهداً عليها!

التعبيرات الصريحة عن هذه المشاعر، وتلك الاعتمادية، تثير حرجي، أنا شخصياً، على كلّ حال؛ وتثير، كذلك، تساؤلاتي، بل حيرتي، حول الدور الذي يتصوّره الطلاب الجامعيون لنا –أساتذتهم- وحول موقعنا في تصوّراتهم لدورهم كطلاب جامعيين. هذه التساؤلات وتلك الحيرة كانا يغيبان في خضم الانشغال المهني ، لكنها كانت تطفو على السطح مع أزمات صاخبة كنت أحياناً طرفاً فيها.

وقد تسنّى لي أن أتلمّس منفذاً للإجابة على تساؤلاتي، ولتبديد بعض حيرتي، في تمرين تطبيقي على تقنية المقابلة الجماعية (أي، ما يشبه الـfocus group)، في مادّة أدرّسها في قسم علم النفس. وكان أن توافقتُ والطالبات المشاركات في تلك المقابلة أن يكون موضوعها "دور الأستاذ/الطالب الجامعي بين التصوّر والواقع". فأطلقت في جلستين متتاليتين تساؤلات حول التصوّر الذي يحمله الطلاب في الجامعة اللبنانية لأدوار أساتذتهم ولأدوارهم؛ وحول الواقع: كيف يعيش الطلاب "طالبيتهم" ، وكيف هم أساتذتهم؟

وقد شارك في هاتين المقابلتين اثنتا عشرة طالبة من سنة ثالثة علم نفس – الفرع الأول، وذلك في شهر أيار الماضي، وجاءت إجاباتهن على النحو الآتي:

الطالب في التصوّر: مجتهد في العلم وناشط في الاجتماع

تمحور الكلام حول الدور المتصوّر للطالب، (أو الطالبة)،المتوقّع والمنتظر منه حول أفكار من شقين، أوّلهما يتعلّق بالنشاط التعلّمي، وثانيهما يتعلّق بالحياة الجامعية وأثرها عليهم.

فالمهمّة الأولى التي يتعيّن على الطالب إنجازها هي تحصيل العلم وما يفترض ذلك من انخراط بنشاطات ترتبط بتحصيل المعلومات واكتساب المعرفة. هذه تشتمل على حضور المحاضرات، وجوب المذاكرة(الدرس) وبذل الجهد، القيام بأبحاث، التشارك مع الطلاب الآخرين بالمعلومات، السعي لتطبيق المعرفة/ المعلومات المحصّلة. وهذه نشاطات هادفة يسعى الطالب، عبر القيام بها، للتحضير المنهجي للمهنة المستقبلية .
لكن توقعات الطلاب لدورهم يتعدّى ذلك. إذ يفترض بهم، وبرأي أكثريتهم، أن يتشاركوا مع آخرين في محيط ثقافي/ فكري، منفتح يسمح بالتعبير الحر؛ والعمل على خلق ذلك المحيط، من أجل تحصيل ثقافة عامة،تسمح بالتحوّلات الشخصية. هذه التحوّلات لا تتحقق إلا عبر إشاعة أجواء جامعية خاصّة محفّزة على تعديل اتجاهات الطلاب وسلوكاتهم لتصبح أكثر ملاءمة مع العصر. ويفترض بالطلاب، كذلك، التشارك مع آخرين في حياة اجتماعية أكثر رحابة من حيواتهم السابقة (الأسرية أو المدرسية ما قبل الجامعية)، من أجل بناء علاقات أكثر تميّزاً؛ وذلك تحضيراً للعب دور يتجاوز أسوار الجامعة من أجل تطوير المجتمع، والفعل فيه.

الطالب واقعاً: بين الخيبة والرضا

في تقديرهن لاختبار دورهن كطالبات، انقسمت المشاركات في المقابلة الجماعية إلى فئتين:
الأولى، وهي أقلّية، لا تجد تعارضاً بين تصوّرها لذلك الدور وبين لعبها له. هؤلاء أبديْن، في الغالب، اتجاهاً إيجابياً حيال الحياة الجامعية؛ فبعضهن اختبر فيها شحذاً لفضولهن، وإعلاء لتقدير ذواتهن، وتوسيعاً لمخزونهن المعرفي/ الفكري. وبعضهن عبّر عن رضاه عن تحصيله الأكاديمي الذي يتفوّق على ما يحصّله الطالب في الجامعات الخاصة.

الثانية، وَجَدتْ تفاوتاً بين التصوّر والواقع. والطالبات من هذه الفئة يحملن أفكاراً تنحو لأن تكون سلبية عن اختباراتهن ** في الجامعة اللبنانية؛ وهي تمحورت حول ما يلي:

- الخيبة والإحباط الناجمين عن غياب الشروط المساعدة للقيام بدور الطالب الجامعي المتوقّع. من هذه ما يتعلّق بوجود صرح جامعي campus يسمح بممارسة نشاطات مختلفة، عدم فعالية التنظيم الإداري الجامعي، عدم توفّر الإمكانات والامتيازات والحقوق المتوفّرة لطلاب الجامعات الأخرى، تراجع التطبيق في المناهج الجامعية،
- الخوف والقلق حيال المستقبل المهني بسبب التقدير المنخفض، غير الحقيقي،وغير العادل للمستوى العلمي للجامعة اللبنانية بالمقارنة مع غيرها من الجامعات،
- انزعاج من نفوذ فئات سياسية مهيمنة قادرة على تزوير نتائج الامتحانات!
- شعور بالغبن حيال التقييم. وهذا ناجم عن الأسلوب غير العادل الذي ينتهجه بعض الأساتذة،
- ترقّب وقلق ناجمين عن أفكار تبث حول أسلوب بعض الأساتذة وبعض المواد.

اللافت أنه، و باستثناء النقطتين الأخيرتين اللتين تشيران إلى أسلوب بعض الأساتذة في التعليم والتقييم، لم تشر الطالبات المشاركات في المقابلة الجماعية إلى موقع للأساتذة في تصوّراتهن لدورهن أو في ممارستهن له. فالكلام عن أدوار الطالب الجامعي المتصوّرة والواقعية لم تستثر، تلقائياً، الكلام عن الأساتذة، أو عن أدوار مساندة أو مُكامِلة لأدوارهم.
هل إن الأساتذة غائبون فعلاً عن حياة الطلاب الجامعيين؟

في الاستجابة للأسئلة المباشرة عن دور الأستاذ الجامعي ما يشير إلى غير ذلك.

الأستاذ في التصوّر: شريك فاعل

في تصور الطالبات لدور الأستاذ(ة) الجامعي(ة)، أشارت الطالبات إلى سمات شخصية بعضها أخلاقية (جادّ، صاحب رسالة، متفان...)، وبعضها علائقي (متفهّم، يستوعب الطلاب...)، لكن أغلب أوصاف الأستاذ الجامعي تمحورت حول سلوكات واتجاهات محددة ذات صلة بمكانته الأكاديمية وأسلوبه في التدريس. ومن هذه وجوب كونه ما يلي:

- مرجعاً بما يطول إلى المعلومات، ملمّاً بمادّته،
- قدوة في سيرته الشخصية، في نشاطه في المجال الاجتماعي، في المجال الثقافي،(لا في مواقفه السياسية!)
- محفّزاً على التفكير والبحث،
- حيوياً في إلقائه، غير مضجّر،معتمداً وسائل إيضاحية،
- متفاعلاً مع الطلاب،
- واثقاً بقدراتهم،
- متيقّظاً لدوره، حاثاً إياهم على وعي الذات،
- جاعلاً المادة التي يدرّسها تميل لأن تكون تطبيقية، لا نظرية فحسب.

الأستاذ واقعاً: الهيمنة والتجاهل

إن الوصف الذي أطلقته الطالبات المشاركات في المقابلة الجماعية للأساتذة في الجامعة اللبنانية الذين قاموا بتدريسهم لا يمكن نعته ب"المديح"! لكنهن توافقن ، قبل الإجابة عن السؤال، على وجود فروق فردية بين الأساتذة، وأن التعميم، في هذه المسالة، غير جائز.

وعبّرت قلّة منهن عن تقديرها لعدد ضئيل من الأساتذة لتفاعلهم مع الطلاب ولتحفيزهم على البحث والمعرفة. إلا أن أكثرية الطالبات أبْدَيْن استياءهن من اتجاهات هؤلاء وممارساتهم؛ ونذكر،في ما يلي، أهمها:

- موقف سلطوي وفوْقي يتبنّاه بعض الأساتذة؛ وبعض الطالبات يجدْن أن هذا التعالي مبنيّ على ادعاءات وتقديرات مبالغ بها لمكانتهم العلمية أو المهنية. وهو ما يفضي، برايهن، إلى تحجيم دور الطالب وتهميشه في عملية اكتساب المعرفة.
- وتكلّمت الطالبات عن اتجاه عاطفي يتبنّاه بعض الأساتذة تجاه المادّة التي يدرّسون؛ وهذا يتجلىّ في ممارسات غير موضوعية، من مثل الانحياز إلى مواضيع دون أخرى ، النهج المتبع في معالجة المواضيع، تعصّب لمدرسة على حساب أخرى، زجّ الطلاب في الخلافات بين المدارس المختلفة،
- المراوحة في مجالات،(وتجاهل أخرى)، لأنها تقع في صلب اهتمامات الأستاذ البحثية،
- تفادي المواضيع "الحرجة"،
- تفادي الإجابة عن أسئلة لا تنتمي مباشرة إلى المادة المحددة التي يدرّسها الأستاذ، (إما ل"قصو"ر في المعلومات أو لرغبة في "عدم التعدّي" على مادة أستاذ آخر).

استنتاجات

قلنا إن الأستاذ الجامعي قد غاب عن توصيف الطالبات المشاركات في ال focus group لأدوار الطالب المتصوّرة والواقعية. هذا الوصف خلا من دور للأساتذة، فلم نجد في كلام الطالبات ما يشير إلى استدعائهم أي نوع للمشاركة في تفعيل دور الطلاب الجامعيين. وهن عَزَوْن، لدى وصف دور الطلاب الجامعيين المتصوّر، فعالية واستقلالاً في إدارة حياتهم الطلابية. لكن الوضع انعكس لدى وصف دور الأستاذ الجامعي المتوقّع والواقعي. فبدا أنه لا يمكن الاكتفاء بأستاذ متمتّع بسمات شخصية، الكفاءة العلمية من بينها، بل يتعيّن عليه أن يكون ناشطاً ومبادئاً، في تفاعله مع الطلاب، متفهّماً و"مستوعباً" لهم، محفّزاً وحاثاً لتحقيق إمكاناتهم الدراسية والشخصية أيضاً، بل قدوة لهم ومتيقّظاً لكونه كذلك.

لكن ما تتصف به اختبارات أكثريتهن هي عكس ذلك تماماً. فهي تقع تحت عنوان عريض يتمثّل بتجاهل الأساتذة لحاجات الطلاب، بل تراهم، من وجهة نظرهم، منغمسين في اهتماماتهم الخاصة، لا يلتفتون إلى طلب الطلاب، فيقتصر التفاعل معهم إلى جرّهم إلى "مواقعهم" ودعوة هؤلاء لنصرتهم في "خلافاتهم النظرية".

ينطوي هذا الكلام، وكما لا يخفى، على أن الأستاذ، برأي الطالبات المشاركات في المقابلة الجماعية، شريك ناشط في تفعيل دور الطالب، وبأنه مقصّر، في الغالب، عن القيام بما تُمليه عليه تلك الشراكة. فما لم يُذكر صراحة في مكانه- أي لدى وصف الطالبات لدور الطالب في الواقع والتصوّر- برز في موقع آخر- لدى وصفهن لدور الأستاذ. وينضم الأستاذ، بذلك، إلى مصادر أخرى أحدثت خيبة وإحباطاً من الحياة الجامعية الطلابية. وذلك بالنسبة للأكثرية التي استفاضت في وصف اختبارها دورها الطالبي في الجامعة، كما ورد أعلاه.

فسحة للتعرّف والحوار

تغيب الأطر الجامعة لطرفين أساسيين- الطالب والأستاذ- في الحياة الجامعية في الجامعة اللبنانية، فتتقلّص مساحات الحوار بينهما. من هنا، فإن توقعات ومُعاش كل من الطرفين لدوره، ولدور الآخر، تبقى في دائرة التكهّن، في أحسن الأحوال. هكذا، فإن تأويل سلوك أي من الطرفين في المجالات المحدودة التي تجمعهما لا يتم وفق معايير صريحة أو معروفة لديهما، فيخضع، بذلك، للتوقعات والتصوّرات غير المُعلنة التي يحملها كلّ من الطرفين للآخر ولدوره في السيروة المشتركة التي جمعتهما معاً.

الكلام المُرسل في المقابلة الجماعية التي نفّذت للتمرين على تقنيّتها، في إحدى الصفوف التي ادرّسها في الجامعة..... هذا الكلام سمح برسم صورة أوّلية للعلاقة المتصوّرة والقائمة في أدوار كل من الأستاذ والطالب، ومن وجهة نظر الأخير. وهو بدد، إلى حد كبير، انطباعاً عن "طفولية" كنت أحسب طغيانها في ثنايا طلب هؤلاء الطلاب من أساتذتهم؛ وهي التي تمثّلت، وكما ذكرت في بداية هذا المقال، في لحظات من التبادل المشحون عاطفياً، وفي ثنايا كلام هادئ يشي ببعض الإعتمادية النافرة والمنفّرة.

هذا، والحق يقال، إن انطباعاتي الأوّلية بدت لي، إثر هذه المقابلة، انتقائية، وخاضعة لما يدعى في علم النفس الاجتماعي ب"سطوة الأحداث الباهرة" على مساحة إدراكاتنا. وهي، وكما ذكرت أعلاه، أحداث كنت شاهدة عليها أو كنت طرفاً فيها. هذه السطوة ينجم عنها، بالضرورة، تهميش للمظاهر الأقلّ صخباً، وإن كانت الأكثر تواجداً وتأثيراً في سيرورة الحياة العادية. فالكلام المذكور بيّن أن ما يتوقعّه الطلاب من ذواتهم ومن أساتذتهم لا يمكن نعته ب"العاطفي" برغم وجود مظاهر متفرّقة تدلّ على ذلك؛ وبأن الاعتمادية ليست هي الغالبة، لا في تصوّر الطالبات المشاركات في هذه المقابلة الجماعية(ولا في الواقع) لأدوراهم، ولا في تصوّرهم لدور أساتذتهم. بل إن الكلام الذي سمعت في المقابلة المذكورة يعكس، في مجمله،

معرفة حدسية وناضجة عن جوهر أدوار كل منهما. هذا الكلام مرشّح للتطوير والبلورة، ومحتاج لإسهام الأساتذة، أنفسهم، من أجل اكتمال الصورة وجلاء معالمها.

النتائج- المحدودة بالوسيلة المذكورة وبعدد المشاركات في تشكيل ملامحها- والتي تحصّلت من هذه المقابلة الجماعية مع عدد من الطالبات الجامعيات،ألا تشير إلى أننا، طلاباً وأساتذة، محتاجون إلى فسحة لقاء مشتركة يقوم الطرفان، فيها، بتقييم متبادل وصريح للأدوار التي يلعبها كلّ من الأستاذ والطالب الجامعي ولموقع كلّ منهما من أدوار الآخر؟

إلى استعراض الأفكار الانطباعية التي يحملها كلُّ من طرفيها عن الآخر، والسعي لجعلها أكثر دقّة؟

إلى صوغ التصوّرات التي يحملها كل منهما لطبيعة ومجالات **الشراكة** التي يَسَعُ الإثنين عقدُها حول المهام التي جمعتهما معاً في سيرورة الحياة الجامعية؟

* **أستاذة في الجامعة اللبنانية.**

** الجدير ذكره أن بعض أساتذة الجامعة اللبنانية يحملون تذمّرات حول وضع الجامعة لا تختلف كثيراً. أنظر مثلاً ، ع.ش.بيضون وم. نصر، (200-2001)، " بين التذمّر المطلبي والالتزام الفاعل: الباحثات في الجامعات اللبنانية"،(حلقة حوار)، **باحثات**، الكتاب السابع،333-365.